جامعة الملك سعود
King Saud University

كلية الآداب
قسم اللغة العربية وآدابها

الندوة الدولية الثانية

قراءة التراث الأدبي واللغوي في الدراسات الحديثة

٢٥-٢٧/٤/١٤٣٥هـ
٢٥-٢٧/٢/٢٠١٤م

المحتويات

البحث	الصفحة
كلمة رئيس الندوة د. خالد عايش الحافي	٣
كلمة رئيس التحرير أ. د. نورة الشملان	٥
خطاب التجديد في مجال إحياء التراث عوض بن حمد القوزي	٧
قراءة النقد الثقافي للتراث الأدبي: آفاق التلقي والتأويل أميرة بنت سلمان القفاري	١٧
قراءة حداثية للتراث وإشكالات المنهج دياب قديد	٤٥
من جهود المغاربة في قراءة النصوص الأدبية والنقدية التراثية: دراسة مصطلحية رشيد سلاوي	٦٧
إشكالية المنهج عند النقاد المعاصرين ودورها في تطوير قراءات الشعر القديم عبدالقادر الحسون	١٠١
رهانات تأويل الخطاب التراثي: تأصيل الكيان من المنظور الحواري فاتحة الطايب	١٢٧
معالم النظرية الإشارية في فكر الإمام ابن قيم الجوزية والدرس اللساني الحديث إدريس بن خويا وفاطمة برماتي	١٤١
التناول النصي في التراث النقدي العربي: دراسة في ضوء لسانيات النص رشيد عمران	١٥١
الشروط الأساسية في قراءة التراث اللغوي واللساني مجدي بن صوف	١٦٣
تفسير النص القرآني وتأويله بين المنهج السلفي والاتجاهات الحداثية محمود أبو المعاطي	١٨٥
الآليات التداولية لتحليل الخطاب من وجهتي نظر الأصوليين والتداوليين المحدثين مختار درقاوي	٢١٣
رثائية المعري الإنسانية: قراءة من منظور تناصي إبراهيم الدّهون	٢٥١
قراءة عبدالقاهر الجرجاني وتصوّره لفعل القراءة أبوعبدالسلام محمد الإدريسي	٢٦٧
قراءة القرطاجني في ضوء نظريات تحليل الخطاب الحديثة خليفة الميساوي	٢٨٣
قراءة التراث الأدبي: التراث السردي نموذجًا سعيد يقطين	٣١١
القراءة العاشقة أو إستراتيجية قراءة النص السردي الكلاسيكي: عبدالفتاح كيليطو نموذجًا عبدالرحمن بوعلي	٣٢٣

البحوث

المشرف العام

د. خالد بن عايش الحافي

رئيس التحرير

أ.د. نورة بنت صالح الشملان

مدير التحرير

د. يوسف بن محمود فجال

أعضاء اللجنة العلمية

أ. د. صالح بن زيّاد الغامدي
أ. د. إبراهيم بن سليمان الشمسان
أ. د. مرزوق بن صنيتان بن تنباك
أ. د. مها بنت صالح الميمان
د. محمد بن لطفي الزليطي
د. بسمة بنت ناجي عروس

المدقق اللغوي

د. حسين المناصرة

البحث	الصفحة
أسلوب النداء في العربية دراسة في تداوليّة الخطاب أيمن محمود محمد إبراهيم	٣٤٣
القضايا التداولية للواسمات في الدرس اللساني العربي ومحطات التقاطع الإبستمولوجي في الدرس المعاصر الجمعي أبو العراس	٣٦٥
نحو قراءة إبستمولجية معرفية للتراث النحوي العربي عبدالرحمن بودرع	٣٧٩
اللسانيات والتراث النحوي: إشكالات منهجية وإبستمولوجية محمد بن صالح وحيدي	٤٠٩
الضرورة الشعرية بين نحو الجملة ولسانيات النص منال نجار	٤٢٥
السيميائيات التأويلية إبدال نقدي لقراءة التراث وترهينه عبدالله بريمي	٤٥١
سيميائيات التلفّظ وتأويل الخطاب: بائية علقمة الفحل أنموذجًا عبدالفتاح يوسف	٤٧١
التحليل السيميائي للنصوص التراثية: مقاربة لتجربة عبدالفتاح كيليطو عبداللطيف محفوظ	٥١٧
آليات تحليل النص التراثي في ضوء المناهج المعاصرة السيميائية / التداولية نادية لقجع جلول	٥٣٣
قضايا تداولية في الخطاب القصصي القرآني: قصة سيدنا يوسف أنموذجًا إيمان جربوعة	٥٥٧
المعجمية الحديثة وإعادة قرءة التراث اللغوي العربي عبدالرحمان أحمد يجيوي	٥٧٩
المهمل في المعجم العربي وسبُل استثماره في وضع المصطلح عبدالقادر بن ميلود سلامي وسليمة حبيب بحياوي	٦١٣
نحو تسطيع «المرايا المقعرة» قراءة نقدية في بعض القضايا الواردة في كتاب المرايا المقعرة حميدي بن يوسف عمر	٦٣١
وقائع الخطاب في كتاب مجالس العلماء للزجاجي وسمية عبدالمحسن المنصور	٦٥١
تأصيل التراث في ظل الأدب المقارن بشير أحمد يوسف عمر	٧٠١
ماهية التراث ضمن المحمولات الأيديولوجية الحديثة عند الشاعر العربي المعاصر حبيب بُوهرور	٧٢٥
القراءة الحداثية للتراث: موقع التراث في بيانات الحداثيين العرب عبدالله العشي	٧٤٥
النقد الحداثي ورهاناته بين نصوصيّة عربية وإجرائية غربيّة لعموري زاوي	٧٦٥
المصطلح النقدي Hermenetics بين خلفية الفكر الغربي وواقع التصور العربي مختار عبدالقادر لزعر	٧٨٥

العنوان

ص.ب : ٢٤٥٦
الرياض: ١١٤٥١
هـــاتف: ٠١١٤٦٧٥١٠١
فـــاكس: ٠١١٤٦٧٥٠٩٤

البريد الإلكتروني

nadwa.arabic@ksu.ed.sa

قراءة القرطاجني في ضوء نظريات تحليل الخطاب الحديثة

خليفة بن الهادي الميساوي

الأستاذ المساعد في اللسانيات، كلية الآداب، جامعة الملك فيصل

ملخص:

نتناول في هذا البحث بعض المسائل التي تعرضت لها الدراسات اللسانية الحديثة خاصة في نظريات تحليل الخطاب ومن أبرزها قضية الربط والترابط والإحالة وعلاقة المتكلم بالخطاب وبإنتاج المعنى وبالسياق واستراتيجيات الخطاب والقصدية والتمثيل الذهني، ففحصنا هذه القضايا في نظرياتها الغربية الحديثة وقدمناها بإيجاز للقارئ العربي ثم طبقناها على كتاب "المنهاج" فوجدنا فيه الكثير مما يتلاءم مع هذه النظريات الحديثة رغم التباعد في الزمن والقرب في الجغرافيا. فعالجنا هذه القضايا في ضوء المنهج المقارن وحاولنا البرهنة بالحجة والشاهد على وجودها في الكتاب ولو بطريقة غير صريحة أحيانا ولذلك بسطنا على القارئ هذه النظريات كما جاءت في أصولها الغربية ثم انتقلنا إلى تطبيقها في قراءة الكتاب.

١- المقدمة

إنّ إعادة النظر في التراث في ضوء المناهج اللسانية الحديثة لهي جديرة بالاهتمام والبحث، ولكنها تتطلب شروطًا علمية ومنهجية من الصعب الإلمام بها إلا عند من كان عارفًا بالنظريات الغربية الحديثة وملمًا بتطوراتها وتفاعلاتها وخبيرًا بأسسها ومنطلقاتها الإبستيمولوجية، وكذلك الشأن بالنسبة إلى الدراسات التراثية، فمن خلال توفر هذه الشروط فقط يمكن قراءة التراث انطلاقًا مما هو حديث. وربما لغياب هذه الشروط نرى البعض لا يقبل بمثل هذه الدراسات[1] ظنًا منه أنها لا تستجيب لهذا التمشي أو كيف نطبق شيئًا حديثًا على شيء قديم؟ إنّ هذه الأطروحات وتلك لها ما يبررها؛ ولكن المشكل في المبرر نفسه وليس في آلية التحليل. ولذلك سنختبر هذه الآلية في كتاب "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" للقرطاجني الذي رأينا فيه ما يحظى بتطبيق هذه المناهج، إذ وجدنا فيه من

(١) انظر على سبيل المثال: محمد الحافظ الروسي، ظاهرة الشعر عند حازم القرطاجني، ٢٠٠٨.

القضايا ما يستحق الدرس والقراءة في ضوء المناهج الحديثة، وغايتنا في ذلك الكشف عن جذور هذه النظريات في تراثنا العربي بطريقة علمية، وليس عاطفية، تخضع للشروط المنهجية الأكاديمية.

٢- تحليل الخطاب في المقاربات الغربية الحديثة

١,٢ الأسس النظرية لتحليل الخطاب

نشأ تحليل الخطاب في الدراسات الغربية في الستينات من القرن العشرين ولكنّ المصطلح المعبر عنه ظهر مع زليق هاريس في أمريكا سنة ١٩٥٢[١]، وهي مقاربات منهجية في العلوم الإنسانية والاجتماعية متعددة الاختصاصات تدرس سياق الخطاب ومحتواه على المستوى الكتابي والشفوي بطريقة كمية وكيفية. وقد تأسس تحليل الخطاب على عدة مفاهيم استلهمها من عدة علوم إنسانية أبرزها علم الاجتماع وعلم النفس والفلسفة والمعلوماتية وعلوم الاتصال والتاريخ واللسانيات. ويمكن تطبيق مقارباته على خطابات متعددة: الخطاب الشفوي (المحادثة)[٢] والخطاب السياسي والخطاب الديني والخطاب العلمي والخطاب الفني والخطاب الأدبي... وقد بدأ تحليل الخطاب في تعريفه التقليدي بدراسة الأنظمة السردية للخطابات الشفوية والكتابية.

يهتم تحليل الخطاب مع اللسانيات بالعلاقات المعقدة المتجددة دومًا في الخطابات؛ لأن العلوم تتطور باستمرار وعلى محلل الخطاب أن يديم النظر في طرق تحليله وضبط إطارها النظري وأدواتها المنهجية وفق هذا التطور. وتنطلق كل الأبحاث في هذا المجال من أنّ الملفوظات لا تمثل جملاً أو متتالية من الجمل بل تمثل نصوصًا. فالنصوص هي ضرب من الأنظمة الخاصة التي يجب أن تدرس كما هي وفي علاقة بالشروط التي أنتجت بها، فتخضع بنية النص/ الخطاب إلى شروط إنتاجه[٣].

ولم يهتم دي سوسير[٤] بمسألة الخطاب وجعل اللسانيات تهتم باللغة في حد ذاتها باعتبارها نظامًا من العلامات، فركز نظريته على المتقابلات مثل اللغة واللسان والكلام والمجتمع والفرد والتاريخية والآنية، فكانت دراسته تخص نظام اللغة الكلي مقابل الأنشطة الفردية المتعلقة بالكلام.

إنّ عدم استقرار مفهوم الخطاب جعل من محاولات تعريفه أمرًا لا قيمة له، إذ هناك من وسع مفهوم الخطاب وهناك من ضيقه. وأقل ما يمكن قوله من الناحية اللسانية هو أنّ الخطاب وحدة لسانية وغير لسانية أكبر من الجملة

---

(١) انظر مقالنا " مدخل إلى نظريات تحليل الخطاب"، ٢٠٠٩.

(٢) انظر حول هذه المسألة كتابنا: الوصائل في تحليل المحادثة: دراسة في إستراتيجيات الخطاب، ٢٠١٢.

(٣) انظر حول هذه المسألة كتابنا: المصطلح اللساني وتأسيس المفهوم، ٢٠١٣.

(٤) انظر كتابه: DE SAUSSURE Ferdinand; *Cours de linguistique générale*, (1916).

وهو يتميز بالمكونات الإيديولوجية والسياسية والاجتماعية والنفسية. ويعتبر الخطاب من الناحية البرغماتية مجموعة من العناصر الثقافية المختلفة التي لا تقتصر على البعد اللساني، فالخطاب هو الملفوظ الذي نستعمله لننجز به أفعالاً كلامية، فهو يهتم بوظائف متعددة منها الوظيفة الإنجازية والوظيفة التواصلية والوظيفة التأثيرية والوظيفة التفاعلية... ويتولى تحليل الخطاب دراسة عمليات التواصل بالتركيز على القيود والعلاقات المتحكمة في الإستراتيجيات والخيارات التي يهدف إليها المتكلم، مهتمًا في ذلك بالمكونات اللسانية وغير اللسانية. فيرتبط تحليل الخطاب بزمن التلفظ ووضعيته وسياقه ومكانه ومن يتكلم، ولهذا فمعنى الخطاب ليس معطى لسانيًا فقط، بل هو مرتبط بمتلقيه وما يفرضه عليه من شروط في الفهم والتأويل.

٢,٢ مقاربات تحليل الخطاب

تعددت مقاربات تحليل الخطاب في النصف الثاني من القرن العشرين وقد أتى على أهمها براون ويول في كتابهما " تحليل الخطاب" (١٩٨٣)، وسنركز على أهمها في هذا البحث.

١,٢,٢ المقاربة التواصلية

لا تقتصر هذه المقاربة على الجانب اللساني وإنما تتجه إلى وظائف اللغة، وهي الوظائف التي وضعها جاكبسون[١] (١٩٦٣) وهي الوظيفة المرجعية والوظيفة الميتالغوية والوظيفة الأدبية والوظيفة التنبيهية والوظيفة الانفعالية والوظيفة التأثيرية. وتتجلى هذه الوظائف عبر هذا النموذج التواصلي الذي يتكون من الباث والمتلقي والسياق والقناة والرمز اللساني والرسالة. وقد تواصلت هذه المقاربة مع دال هايمز في مفهوم القدرة التواصلية[٢] التي نقد فيها تشومسكي واعتبر أنّ القدرة اللغوية غير كافية وحدها للتواصل. ثم استقلت بذاتها وشكلت مسارات متعددة في دراسة التواصل تنظيرًا وتطبيقًا.

٢,٢,٢ المقاربة التلفظية

نشأت مع بنفنيست (١٩٦٦)[٣] وهي تهتم بشروط الإنتاج التلفظي وفهم نظام اشتغال اللغة من خلال الضمائر المنفصلة والمتصلة وأسماء الإشارة وزمن التلفظ وعلاقته بالمتكلم. ثم تواصلت هذه المقاربة مع أوركيوني وكلايبير

(١) انظر حول هذه المسألة : JAKOBSON Roman; *Essais de linguistique générale*, (1963).

(٢) انظر كتابه : HYMES, Dell; *Foundations in Sociolinguistics: An Ethnographic Approach*, (1974).

(٣) انظر كتابه : BENVENISTE, Emile; *Problèmes de linguistique générale*.T1, (1966) et T2, (1974).

... وقد اهتمت هذه المقاربة بالمشيرات المقامية ودورها في تحليل الخطاب بالتركيز على توزيعها في الخطاب وما تشكله من إحالات ومراجع في بنية الخطاب التلفظية.

٣,٢,٢ المقاربة اللسانية الاجتماعية

تبحث هذه المقاربة في اختلاف الاستعمالات اللسانية في مجموعة لسانية معينة، وتتركز عملية التحليل فيها على وظائف اللغة واستعمالها في المجتمع وكذلك تركز على السياق الاجتماعي والثقافي لإنتاج الخطاب ومن أبرز علمائها لبوف وقنبرز وقوفمان وبورديو... وتعتبر هذه المقاربة أنّ الخطاب إجراء اجتماعي ينتجه المجتمع وفق قيود معينة متحكمة في عملية التلفظ وتجعلها مرتبطة بالإطار المكاني والزماني ومن يتكلم وموضوع الحديث وطبيعة العلاقة الرابطة بن المشاركين في المحادثة / الخطاب وجنسهم ومستواهم التعليمي والاقتصادي وطبقتهم الاجتماعية.

٤,٢,٢ المقاربة المحادثاتية

نشأت هذه المقاربة في الولايات المتحدة الأمريكية (١٩٦٥) ومن أبرز أعلامها قارنفنكل الذي أسس الاتنوميتودولوجيا. وركزت هذه المقاربة على اللغة باعتبارها حدثًا اجتماعيًا تفاعليًا يخضع للسياق الاجتماعي وأنّ الخطاب يخضع في تحليله لشروط الإنتاج اللسانية والاجتماعية. واتبعت منهجًا في التحليل يقوم على تقسيم المحادثة إلى أدوار كلامية ثم البحث في كيفية الربط والترابط بينها في سلسلة الكلام مع التركيز على الظواهر غير اللسانية ولها علاقة بالمحادثة مثل حركات الجسم المصاحبة لعملية التلفظ وما تقوم به من دور في الفهم والتأويل وتحديد المقاصد.

٥,٢,٢ المقاربة البرغماتية

تشكلت هذه المقاربة بشكل واضح مع أوستين في بداية الستينات من القرن العشرين وهي المقاربة الفاعلة اليوم في تحليل الخطاب باعتبارها تجمع بين عدة علوم لسانية ومنطقية وفلسفة وعلم نفس وعلم اجتماع. وتقوم هذه المقاربة على مفهوم الفعل ومفهوم السياق ومفهوم الإنجازية [١] ومرت هذه المقاربة بمراحل في التحليل بدءا بمرحلة البرغماتية التحليلية التي قامت على الفلسفة التحليلية في خمسينات القرن العشرين ومن أبرز أعلامها أوستين

(١) انظر حول هذه المسألة:

AUSTIN, John. Langshaw; *How to do things with words*, (1962).
SEARLE, John. R; *Speech Acts: An Essay in the Philosophy of Language*, (1969).
VANDERVEKEN, Daniel; « La théorie des actes de discours et l'analyse de la conversation », (1992), pp. 9-59.

وسارل اللذين اهتما بتحليل الأفعال الكلامية في علاقتها بمقاصد المتكلم. وقد قام التحليل فيها على دراسة الفعل القولي والفعل الإنجازي والفعل التأثيري. ثم تلتها في أواخر الستينات مرحلة البرغماتية اللسانية الاجتماعية ومن أبرز أعلامها دال هايمز وجون قنبرز اللذان ركزا على علاقة المتكلم بالحدث الكلامي باعتباره فاعلاً اجتماعيًا ومؤثرًا في إنتاج الخطاب من ناحية القدرة التواصلية الفردية والجماعية. ثم تلتها مرحلة البرغماتية التلفظية أو البرغماتية المندمجة ومن أبرز أعلامها بنفنيست وديكرو وأنسكنبر الذين ركزوا أعمالهم على علاقة المتكلم بالخطاب من ناحية الفعل الحجاجي باعتبار أن المكون البرغماتي مدمج في اللغة نفسها وليس خارجًا عنها، إذ العلاقة بين الملفوظ ومتلفظه تقوم على الحجاج وليس على الاستنباط، فأدمجت كل المكونات مع بعضها بعض في عملية التحليل. ثم تلتها مرحلة البرغماتية الأساسية ومن أبرز أعلامها سباربر وولسن اللذان ألحقا البرغماتية بنظرية المناسبة والنظرية العرفانية[١] فاهتمت بعملية تحليل المعلومات انطلاقًا من مبدأ الاستدلال والاهتمام بعملية إنتاج المعنى في الخطاب انطلاقًا من قواعد المحادثة وقواعد التوافق والملاءمة بين التفكير الذهني والنشاط الخطابي[٢] واستكشاف عملية الفهم والتأويل في علاقتها بعملية الإنتاج. ثم تلتها مرحلة البرغماتية النصية ومن أبرز أعلامها جون ميشال آدم[٣] الذي أحيا ما قام به هاريس معتمدًا على أفعال الكلام والوحدات الخطابية والبنية الكبرى للخطاب والوصائل البرغماتية وإستراتيجيات الخطاب واتجاهاته وقيمه الإنجازية وعلاماته التلفظية مركزًا في ذلك على تسلسل الخطاب الخطي والعمودي ودورهما في إنتاج النص. ثم تلتها مرحلة البرغماتية النفسية الاجتماعية ومن أبرز أعلامها جيقليوني (١٩٨٩) وهي مرحلة جمعت نظرية الاتصال والتحليل القضوي واعتبرت المتكلم هو الفاعل الرئيسي في إنتاج الخطاب وفهمه وتأويله ولا يخضع للبنى الاجتماعية الكبرى المتحكمة فيه، فهي مقاربة تركز على التشارك في عملية التلفظ واستثنت مفهوم الباث والمتقبل وخضع التحليل فيها إلى ثلاثة مستويات: ١ – المستوى القضوي، ٢- مستوى العلاقات بين قضوية ،٣- المستوى التلفظي.

---

(١) انظر حول هذه المسألة:

SPERBER, Dan., WILSON, Deirdre; *La pertinence: communication et cognition*, (1989).

(٢) نعتبر كتاب القرطاجني "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" في مجمله يندرج ضمن هذه المقاربة والمقاربات التالية لها، (المقاربة البرغماتية الأساسية والمقاربة البرغماتية النصية والمقاربة البرغماتية النفسية الاجتماعية والمقاربة السيميائية).

(٣) انظر حول هذه المسألة كتابه:

ADAM, Jean– Michel; *Linguistique textuelle : des genres de discours aux textes*, (1999).

٦,٢,٢ المقاربة السيميائية

نشأت هذه المقاربة على يد شارل سندرس بيرس[١] في الولايات المتحدة الأمريكية ، وهي مقاربة منطقية وفلسفية تبحث في إنتاج العلامة وتصنيفها ودلالتها وتأويلها. وقد اعتبرها البعض "النظرية العامة للعلامات وكيفية تمظهرها في الفكر"(دومنيوز، ١٩٩٨ ، ٣).[٢] وقد نشأت هذه المقاربة في إطار البرغماتية وهو ما يجعل العلامة مرتبطة في تأويلها والبحث عن دلالتها بإطار الفعل التأويلي المرتبط أيضًا بالسياق. وبالتالي فهي تهتم بالكشف عن الدلالة وعن السيرورة التأويلية لأي علامة ومنها النصوص الأدبية[٣] باعتبارها حاملاً لعلامات لغوية تخضع في بنائها لثلاثة مستويات: المستوى التركيبي الذي يبحث في طبيعة العلاقات الرابطة بين العلامات والمستوى الدلالي الذي يبحث في طبيعة العلاقات الرابطة بين العلامة ومرجعها والمستوى البرغماتي الذي يبحث عن مستوى العلاقات الرابطة بين العلامة ومستعملها[٤]، فيتشكل، حسب هذه المقاربة، كل فكر بواسطة العلامات. وتتكون العلامة من ثلاثة جوانب: العلامة المادية المباشرة التي تعين الشيء أو الموضوع الفكري وتعين بواسطة المؤول المباشر العلاقة الذهنية بين الذهن والموضوع لضبط المعنى الذي تدل عليه بشكل مباشر، ويأتي الموضوع في المرتبة الثانية وهو عبارة عمّا يدور حوله الكلام، ويتحقق المستوى الثاني عبر المؤول الدينامي الذي يعبر عن العلاقة بين العلامة ودلالتها، ثم يأتي المستوى الثالث المعبّر عن المؤول النهائي، وهكذا تنطلق سيرورة عملية التأويل من العلامة المباشرة ثم تتواصل عبر التأويل الممكن.

٣- مسار التحول عند حازم القرطاجني

يبدو مسار التحول عند القرطاجني واضحًا في الشكل والمضمون ونقصد بالشكل المنهج المتبع في وضع الكتاب وتقسيمه بشكل منهجي واضح اعتمد فيه التوازن بين التنظير والتطبيق، وهو المنهج المعتمد في البحوث العلمية الحديثة. ونقصد بالمضمون التحول في الرؤية والفكر عما سبقه من دراسات بلاغية، إذ يذكر في غضون حديثة عن المعاني البلاغية " وقد سلكت من التكلم في جميع ذلك مسلكًا لم يسلكه أحد قبلي من أرباب هذه الصناعة،

---

(١) انظر كتابه : PEIRCE, Charles Sanders; *Ecrits sur le signe*, (1978).

(٢) انظر حول هذه المسألة : DOMENJOZ , Jean-Claude; «L'approche sémiologique», (1998),pp1-27.

(٣) انظر حول التطبيقات على النصوص الأدبية العربية عامر الحلواني في كتابه : التحليل السيميائي والمشروع التأويلي.
وانظر كذلك كتابه : في القراءة السيميائية .

(٤) انظر حول هذه المسألة :
MORRIS Charles;« Fondements de la théorie des signes», (1938/1974), pp15-26.

لصعوبة مرامه وتوعر سبيل التوصل إليه . هذا على أنه روح الصنعة وعمدة البلاغة". (منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ١٩٨١ ، ١٨). ويعود هذا المسلك الجديد إلى المصادر المنطقية والفلسفية وخاصة الإغريقية منها التي تشبع بها، فأثرت في رؤيته للكون الشعري والإنساني فراح يبحث عن نظرية كونية تخص كل الخطابات وخاصة في الجزء الأول من كتابه الذي اهتم فيه بالتنظير وبأحوال المتكلم والمتلقي على حدّ السواء. وللأسف أن القسم المهم الذي نرى فيه انطلاقًا من العنوان تحولاً حقيقيًا في نظريته قد فقد وضاع، إذ يتناول هذا القسم المفقود من كتاب منهاج البلغاء " القول وأجزاءه، والأداء وطرقه، والأثر الذي يحصل للسامعين عند صدور الكلام" (مقدمة المنهاج، ص ٩٤). ونعتبر هذا القسم – على أهمية الأقسام الثلاثة الأخرى- بمثابة التحول الذي يربطنا بنظريات تحليل الخطاب الحديثة في اللسانيات الغربية، إذ نلاحظ من خلال القضايا التي تناولها[1] أنّها تتجه نحو المسائل التي تخوض فيها اللسانيات الحديثة كما بينا ذلك في المقاربات السابقة. "فمن يعتمد الشواهد التي أدلى بها السبكي يجد حازمًا مشغولاً بالبحث عن الضرائر وبما قصر أو طال من العبارات والألفاظ كما يلفه باحثًا في الابتذال والغرابة والتشبيه وشروطه" (مقدمة المنهاج، ص ٩٥) . أمّا ما تبقى من الكتاب فيبحث في صناعة الشعر على العموم " ونجده يتعمق ذلك في القسم الثاني والثالث والرابع من المنهاج ببحث المعاني والمباني والأسلوب."(مقدمة المنهاج ص ٩٥). ومن أبرز القضايا التي تميز بها القرطاجني فيما بقي من فصول، وهي تعد تحولاً ملحوظًا عن الدراسات السابقة له، البحث في قضايا المعنى وتشكله وكيفية استحضاره في الذهن وانعكاسه في القول وانتظامه في البناء مفرقًا بذلك بين الإدراك الذهني والإدراك الحسي ومميزًا بين المعاني الجمهورية والمعاني العلمية الخاصة . وقد ردّ هذا التفريق والتمييز إلى القوى الضابطة للجودة، "ومرد الجودة في العمل الفني لجميع الشعراء قوى ثلاث هي: القوة المائزة والقوة الحافظة والقوة الصانعة. وقد استغرق بحث هذه القضايا، بطريقة فلسفية منطقية، سبعة فصول، وهي التي صدّر بها حازم هذا المنهج". (مقدمة المنهاج، ص ٩٧). ويمكن أن نلخص أبرز مسائل التحول عند القرطاجني في القضايا التالية:

- اعتماد الأسلوب الفلسفي والمنطقي في معالجة المعاني.
- خروجه على الدائرة البلاغية العربية إلى المعاني الكونية المتصلة بالقول/ الخطاب.
- اعتماد المنهج الاستدلالي والمتصوري في البرهنة عن إنتاج المعاني.
- اعتبار مفهوم المتكلم والظروف المقامية المتحكمة في إنتاج المعاني.
- التعرض إلى قضايا الربط والترابط النصي متجاوزا بذلك الربط اللفظي إلى المعنوي

(١) انظر مقدمة محقق كتاب منهاج الأدباء وسراج الأدباء حيث جمع كاتبها عدة آراء تتعلق بالقسم المفقود تفيد أنّه قسم مميز يتناول قضايا لسانية حديثة مثل القول والإنجاز والتأثير وهي قضايا عالجتها المقاربات البرغماتية الحديثة.

- التعرض إلى مفهوم الطبع والملكة الشعرية ورد ذلك إلى الفطرة أو الموهبة.
- اعتماده منهج مصطلحي واضح في الضبط والتعريف.
- ابتكاره مصطلحات خاصة به.

٤- انتظام الخطاب

يبنى انتظام الخطاب وتسلسله على أسس نظرية وتطبيقية. يهتم الجانب التنظيري بالفضاءات الذهنية المتصلة بالإنتاج وضبط المتصورات المعنوية وكيفية ترابطها ذهنيًا ومقاصديًا، ويهتم الجانب التطبيقي بصناعة الخطاب لفظيًا وتركيبيًا ودلاليًا وكيفية ربطها في سلسلة تلتئم فيها كل هذه العناصر بصورة مقبولة ومتماسكة ومنسجمة. وتتحقق هذه الأهداف بمعرفة كيفية اشتغال العناصر الخطابية المؤسسة لانتظام الخطاب وتسلسله، نذكر منها نظام الإحالة ونظام الربط والوصل والأسلوب وملاءمة العبارة... وتتحقق كذلك بمسائل خارج الخطاب ولكنها تمثل قيودًا في إنتاج معانيه وضبط مقاصده وتحديد أهدافه وغاياته، نذكر منها السياق ووضعية التخاطب والمعرفة المشتركة والجوانب النفسية والاجتماعية والثقافية للمتكلم. وقد تعرض القرطاجني إلى هذه العناصر والمفاهيم في كتابه المنهاج وسنتولى تحليلها مستفيدين في ذلك مما توصلت إليه المقاربات الحديثة في تحليل الخطاب.

١,٤ الربط/الوصل

يتطلب كل خطاب شفوي أو مكتوب وسائل ربط تصل مفاصله وتربط نسيجه اللساني وقد تعرض اللسانيون قديمًا وحديثًا لهذه المسألة[١] وقد ربطت الدراسات الحديثة مفهوم الوصل بالوظائف التي يؤديها في بناء الخطاب وانتظامه وتسلسله، وهو ما جعل هذه الوظائف تتجاوز مجرد مفهوم الربط وأدواته بين الجمل إلى الوظائف النحوية والدلالية والبرغماتية التي تؤمن تسلسل الخطاب وانسجامه وتماسكه[٢]. ولم يشذّ القرطاجني عن هذه الوظائف بل كان مدركًا لها وواعيًا بها، فتجاوز بذلك مفهوم الربط النحوي العادي الذي كان سائدًا قبله إلى الحديث عن القبول النفسي للمتكلم وكذلك المقبولية التركيبية التي تهتم بالعلاقات ووظائفها بين العبارات وهيآتها وكيفية ترتيب

(١) انظر حول هذه المسألة كتابنا: الوصائل في تحليل المحادثة: دراسة في إستراتيجيات الخطاب، خاصة في قسمه الأول حيث حللنا مفهوم الربط والوصل عند القدامى والمحدثين.

(٢) انظر حول هذه المسألة الكتب التالية:

JAYEZ, Jacques; *L'inférence en langage naturelle, le problème des connecteurs représentation et calcul*, (1998).

MOESCHLER, Jacques; « Les connecteurs pragmatiques et la cohérence conversationnelle », (1996), pp. 15-32.

قضاياها الدلالية وهو ما عبر عنه بمفهوم الحيل التي تنتظم بها، " وأن يؤخذ الكلام من كلّ مأخذ حتى يكون كلّاً مستجدًا بعيدًا من التكرار، فيكون أخفّ على النفس وأوقع منها بمحمل القبول. ويقتدر على هذا بمعرفة كيفيات تصاريف العبارات وهيآت ترتيبها وترتيب ما دلّت عليه، والبصيرة بضروب تركيباتها وشتى مآخذها، وبقوة ملاحظات الخواطر لضروب العبارات وأصناف هيآتها وهيآت ما دلت عليه، وللحيل التي تنتظم تلك العبارات" (القرطاجني، ١٩٨١، ١٦- ١٧). وقد طور القرطاجني مفهوم الربط إلى مفهوم الترتيب وربطه بترتيب المعاني، " ولما كان التصرف في ترتيب العبارات بإزاء التصرف في ترتيب المعاني جعلت هذه الإضاءة الموضحة عن الوجوه التي يجب اعتمادها في جميع ذلك". (القرطاجني، ١٩٨١، ١٧). وقد عالجت هذه القضية حديثًا مقاربات كثيرة من أهمها مقاربة ديكرو[1] التي عالج فيها مفهوم الوصل مركزًا في ذلك على الوظائف الدلالية التي يضطلع بها الوصل في رسم معالم الخطاب، "إذ تقوم الوصائل بدور معتاد في عقد صلات بين كيانين دلاليين(ديكرو، ١٩٨٠، ١٥). وقد ذهب اللسانيون المهتمون بمسألة الوصل إلى أن تسلسل الخطاب يكون بطريقتين ذهنية ولسانية؛ وهو ما يستدعي حضور الوصائل أو غيابها في بنية الخطاب؛ ولذلك ربطها ديكور بالمسكوت عنه في الخطاب وبالمتكلم وإستراتيجياته في القول وكذلك المتقبل وإستراتيجياته في الفهم والتأويل. وقد اعتبر ديكرو "أن بنية الجملة لا تحتوي إلاّ على تراكيب نحوية لا توفر إلاّ بعض المؤشرات الدالة على الوصل وهو ما يستدعي البحث عن كيفية ترتيب العلاقات الدلالية بين القضايا في الجملة سواء أوجد الواصل أم لم يوجد. وقد عبر القرطاجني عن هذه الفكرة بقوله: " فأمّا التطالب فيه بحسب انتساب بعض المعاني إلى بعض فلا تخلو النسبة فيه من أن تقع بين المعنيين بواسطة أو بغير واسطة، فأمّا ما وقعت فيه بغير واسطة فيمكن حصر أنواعه وصوره، وأمّا ما تقع فيه النسب بواسطة فعزيز حصرها فيه لكون كلّ معنى يمكن أن يكون للتطالب بين معنيين بتوسطه وجهة التطالب هي النسبة." (القرطاجني، ١٩٨١، ٤٤). وهكذا وإن كان القرطاجني قد أدرك مفهوم الوصل بمعناه اللساني الحديث فإنه لم يأت على جميع

---

(١) انظر كتبه التالية:

DUCROT, Oswald. et al; *Les mots du discours*, (1980).

DUCROT, Oswald; « Analyses pragmatiques », *Communications*, n°32,(1980), pp. 11-60.

DUCROT, Oswald; *Dire et ne pas dire: principes de sémantique linguistique*, (1980).

DUCROT, Oswald; *Les échelles argumentatives*, (1980).

DUCROT, Oswald; *Le dire et le dit*, (1984).

DUCROT, Oswald; *Logique, structure, énonciation*, (1989).

جوانبه الدقيقة والمفصلة كما هو في المقاربات الحديثة التي عالجت مسألة الوصل في علاقتها بالبرغماتية وتحليل الخطاب.

٢,٤ الإحالة

يمثل نظام الإحالة في الخطاب شكلاً من أشكال ربطه واسترساله وانسجامه. وترد الإحالة على قسمين: قسم يشتغل داخل نسيج الخطاب تركيبيًا ودلاليًا؛ وقسم خارج عنه يعبّر عن المستوى البرغماتي من خلال علاقة الخطاب بمنتجه. وتنقسم الإحالة الداخلية (Endophora) إلى صنفين:

١ -الإحالة القبلية (Anaphora) وهي تعبر عن العلاقة بين عنصر لغوي سابق الذكر في الخطاب وعنصر الإحالة وهي الأكثر وجودًا في الخطاب[١].

٢ -الإحالة البعدية (Cataphora) وهي تعبر عن عنصر لغوي لاحق الذكر في الخطاب وعنصر الإحالة الذي تشير إليه وهي أقل استعمالاً في الخطاب.

وتعبر الإحالة الخارجية (Exophora) عن العلاقة بين عنصر إحالي داخل الخطاب وعنصر إشاري غير لغوي خارج الخطاب ويتم ضبطه من خلال مقام التلفظ.

وقد تعرض القرطاجني إلى مفهوم الإحالة في شكليها الداخلي والخارجي، " والاستدلالات الواقعة في الشعر والأمثال المضروبة فيه إنّما تجيء تابعة لبعض ما في الكلام أو لما قد أشير إليه ممّا هو خارج عنه، فهي إمّا محاكاة لمتبوعاتها، أو تخييلات فيها أو من أجلها." (القرطاجني، ٦٧، ١٩٨١)، والطريف عنده أنه ربط الإحالة بالمستوى الذهني لمنتج الخطاب فتجاوز بذلك الدلالة النصية التي تقوم على عناصر الربط والإسناد في سلسلة الخطاب إلى الدلالة العرفانية التي تقوم على الاستدلال المنطقي داخل الخطاب وخارجه سواء بالمحاكاة أو بالتخييل. وربط الإحالة كذلك بحسن الاستعمال واختيار الموقع الملائم والمناسب " وإذا أوقعت الإحالة الموقع اللائق بها فهي من أحسن شيء في الكلام " (القرطاجني، ١٩٨١، ١٩٠). ونفهم من هذا القول أنّ للإحالة وظائف متعددة منها وظيفة الربط ومنها وظيفة الاستدلال ومنها الوظيفة الأسلوبية.

٣,٤ إنتاج الخطاب وصناعته

ينتج الخطاب انطلاقًا من مصدرين: مصدر لساني- معرفي ومصدر اجتماعي- ثقافي، يهتم الجانب الأول بالمستويات المعرفية وكيفية صياغتها في النصوص أو الخطابات لفظيًا وتركيبيًا ودلاليًا وتكون هذه الصياغة خاضعة

(١) انظر كتابنا: الوصائل في تحليل المحادثة: دراسة في إستراتيجيات الخطاب، ص١٠٣ وما بعدها.

لمبادئ الإنتاج المشتركة والمعروفة عند المجموعة اللسانية أو خاضعة للإبداع الفردي. ويهتم الجانب الثاني بالمستويات الاجتماعية والثقافية التي ينتمي إليها منتج الخطاب ومتقبله، فهو ينتج خطابًا وفق القيود الاجتماعية والثقافية التي تتحكم في عملية الإنتاج وتوجه عملية الفهم والتأويل وتجعلها مقبولة أو مرفوضة وفق مبدأي الصدق والكذب. ووفقًا لهذه الفكرة وضع القرطاجني نموذجًا متميزًا لإنتاج الخطاب وكيفية صناعته وتصنيف أقواله حسب هذه المقاييس المؤسسة على مفاهيم الصدق والكذب والممكن والمستحيل؛ ثم تصنيفها وفق المشترك الحاصل في الذاكرة الجماعية والمختلف الفردي الذي يقوم على الإبداع. ووفق هذا المنظور" فأغراض الشعر إذًا منها حاصلة، ومنها مختلفة. والحاصلة منها ما تكون الأقاويل فيها اقتصادية وتقصيرية وإفراطية. وكذلك المختلفة تكون أقاويلها أيضًا اقتصادية وتقصيرية وإفراطية ، والإفراطية: منها إمكانية ومنها امتناعية ومنها استحالية. يتركب منها عشرة أصناف: صنفان منها صادقان: - ١- وهي الحاصلة التي أقاويلها اقتصادية، - ٢- والحاصلة التي أقاويلها تقصيرية. - ٣- وصنف يحتمل الصدق والكذب: وهو الحاصلة التي أقاويلها إمكانية. وسبعة أصناف كاذبة : - ١- وهي الحاصلة التي أقاويلها ممتنعة. - ٢- والحاصلة التي أقاويلها مستحيلة. - ٣- والمختلقة التقصيرية. - ٤- والاقتصادية. - ٥- والإمكانية. - ٦- والامتناعية. - ٧- والاستحالية." (القرطاجني، ١٩٨١، ٧٩- ٨٠). اختزل هذا النموذج الإنتاجي أصناف الخطابات والحكم عليها وفق القوة المخيلة وربطها بمنزلة السمو والإبداع والممكن والمستحيل التي تعود كلها إلى المنطق الصوري الأرسطي ومقولتي الصدق والكذب.

٤.٤ المعرفة المشتركة

يتقيد منتج الخطاب بمرجعين أساسيين: "مرجع يتعلق بما حصله من رصيد لساني يختار منه ما يناسبه لحظة إنجاز الكلام ومرجع يتعلق بالبنية الاجتماعية التي أنتجت بنى لسانية استقرت في الذاكرة الجماعية وباتت من إحدى خصوصياتها" (الميساوي، الوصائل،٢٠١٢، ٢٦١). ولذلك فكل خطاب يتميز بهذه الخصوصيات المرجعية المشتركة بين المنتج والمؤول؛ ولكي تكون عملية الإنتاج مقبولة وناجحة دلاليًا واجتماعيًا لابد أن يكون الخطاب منسجمًا مع محيطه اللساني والاجتماعي، فترد ألفاظه وتراكيبه متلائمة مع ما هو مشترك في الذاكرة الجماعية ومناسبًا لما تعارفت عليه من هيآت وأطر خطابية باتت في دائرة الاتفاق والمواضعة والاصطلاح؛ فتوجه عملية الإنتاج وتقيد مجراها بقيود لسانية ودلالية وبرغماتية واجتماعية ونفسية؛ وتمثل شروطًا في إنتاج المعنى وتحوله من سياق إلى آخر، ولذلك " يشترط في النقلة من بعض هذه المعاني الذهنية إلى بعض أن يكون ذلك غير خارج عن الهيآت التي وقعت للعرب في النقلة من بعض ذلك إلى بعض " (القرطاجني، ١٩٨١ ، ١٧). ويربط القرطاجني بين الذوق الجمهوري الذي يخص العامة وذوق الخاصة الذي يخص النخبة من المجتمع بعملية الاعتقاد المشترك والإدراك وهو ما يجعل الحكم على الأشياء مبنيًا على هذا الاشتراك في الاعتقاد، فتكون عملية الإنتاج خاضعة لهذا الاعتقاد ومدى تقبلها ونجاحها يخضع للذوق العام المشترك. " والأشياء التي يقال فيها إنّها خيرات وشرور أو يتوهم أنّها

كذلك منها أمور يشترك في معرفتها وإدراكها الخاصة والجمهور في اعتقادهم أنّها خير أو شرّ " (القرطاجني، ١٩٨١ ، ٢٠). ووفقا لهذه المعرفة المشتركة يستدرج المتكلم ما تلقاه بالطبع والجبلة والعادة ليجد له صلة مع ما اكتسبه بصفة فردية " وذلك بأن يستدرج ممّا وجد في النفس بحسب الجبلّة والعادة إلى ما وجد بالكسب والاستفادة" (القرطاجني، ١٩٨١ ، ٢٢). فتكون الاستفادة مما هو جماعي في تكوين ما هو ذاتي، فيبنى الخطاب على ما هو مشترك وعلى ما هو فردي ويتصرف المتكلم في كلامه وفق القوانين الجماعية المتحكمة في عملية الإنتاج الذاتية في التلفظ والمشتركة في المعاني والدلالات والقوانين الخطابية والجمالية والنفسية والذوقية. "وللأفكار تفاوت في تصرّفها في ضروب المعاني وضروب تركيبها من جميع هذه الجهات التي ذكرت. ويتقوى على ذلك بالطبع الفائق والفكر النافذ الناقد الرائق ، وبالمعرفة بجميع ما يحتاج إلى معرفته في هذه الصناعة من حفظ الكلام والقوانين البلاغية" (القرطاجني، ١٩٨١ ، ٣٦). ولكي يدرك مؤول الخطاب ومحلله هذه القوانين البانية لمستوياته الفكرية والمقيدة لمستوياته التلفظية عليه أن يكون عارفًا بالقوانين البلاغية المشتركة ومتميزًا بقدرة نقدية وتحليلية تنفذ إلى جميع بنى الخطاب الفكرية واللسانية والنفسية والاجتماعية، وهو يستدعي وجود مبادئ تتحكم في عملية البناء والفهم والتأويل.

٥,٤ مبادئ غرايس

أسس غرايس مبادئه في تحليل المحادثة على مبدأ عام سماه مبدأ التعاون (غرايس، ١٩٧٥ ، ٥٤)، ويستند هذا المبدأ إلى أربع قواعد:

١ - قاعدة الكمية: تقديم المعلومات المطلوبة اللازمة فقط.

٢ - قاعدة الكيفية: قول ما هو مقبول وصادق ومعتقد في صحته.

٣ - قاعدة العلاقة: قول ما هو مناسب لموضوع الحديث.

٤ - قاعدة الأسلوب: أن يكون القول واضحًا وموجزًا ومتماسكًا.

وقد أضاف سبابر وولسن مبدأ المناسبة[1] (١٩٨٦) الذي اهتم بعملية الاتصال في أبعادها المعرفية والنفسية واللسانية وهو مبدأ أساسي في عملية الفهم والتأويل. ولم يشر القرطاجني إلى هذه المبادئ بالتفصيل وبكيفية واضحة مثلما فعل غرايس، ولكنه كان واعيًا بأهميتها في بناء الخطاب وانتظامه ؛ فتأتي التراكيب متناسبة وبمقادير ملائمة للقول" وكثيرًا ما يتأتى في هذه التركيبات تقسيم الكلام وتفصيله إلى مقادير متعادلة متناسبة" (القرطاجني، ١٩٨١ ، ٣٥). يعبّر بقوله هذا عن المبدأين الأولين اللذين ذكرهما غرايس كما يعبّر عن مبدأي الأسلوب والعلاقة

(١) أشار غرايس إلى هذا المبدأ ١٩٧٥ ، ضمن المبادئ التي وضعها ولكنه لم يشرحه شرحًا كافيًا، ثم أصبح واضحًا مع سبابر وولسن سنة ١٩٨٦.

بقوله: " إنّ المعاني منها ما يَتطالب بحسب الإسناد خاصة، ومنها ما يَتطالب بحسب الإسناد وبحسب انتساب بعض المعاني إلى بعض في أنفسها بكونها أمثالاً أو أشباها أو أضدادًا أو متقاربات من الأمثال أو الأضداد". (القرطاجني، ١٩٨١ ، ٤٤). كما عبر عن مبدأ المناسبة مثلما وضعه سبابر وولسن بقوله: " فالنسب الإسنادية تلاحظ الأفكار فيها أربعة أشياء وهي: البيان والمبالغة والمناسبة والمشاكلة التي يكون سببها من الخفاء بحيث قد يتعذر عرفان كنهه" (القرطاجني، ١٩٨١ ، ٤٤). وقد وسّع القرطاجني مبدأ المناسبة فربطه بالجانب النفسي والقدرة اللسانية للمتكلم وسنحلله لاحقًا لنتبين خصوصياته وعلاقاته بإنتاج الخطاب وتحليله.

٦.٤ الترابط

اهتم تحليل الخطاب في الدراسات اللسانية الحديثة بمسألتي الربط / الارتباط (Cohesion) والترابط (Coherence)[١] فاعتبرهما باتري مصطلحين توأمين (١٩٩٣ ، ١١٦). و قد اختلفت الدراسات الغربية في تحديدها لهذين المصطلحين فمنها ما ربطتهما ببعضهما البعض ومنها ما اعتبرتهما شأنًا لسانيًا يدخل في نسيج الخطاب اللساني ومنها ما اعتبرتهما منفصلين، فخصصت المصطلح الأوّل للربط اللساني وخصصت المصطلح الثاني للترابط البرغماتي وهو خارج الخطاب، فاعتبر هاتش" أنّ ظاهرة الترابط تعود إلى مجال البرغماتية أو السيميوتيقا وليس إلى مجال اللسانيات (١٩٩٢ ، ٢٠٩) ؛ ولذلك فظاهرة الترابط تعود إلى مجموع الظواهر البرغماتية التي تسمح بالملاءمة بين الخطاب والاستعمال. فهو شأن يخص المتخاطبين ومعارفهم وقدراتهم على فهم الخطاب وتأويله. ونجد القرطاجني ممثلاً في الشق الأول الذي جمع بين الربط والترابط في نسيج الخطاب اللساني والذهني، "فالاتباع والجر وما جرى مجراهما معان ليس لها خارج الذهن وجود لأنّ الذي خارج الذهن هو ثبوت نسبة شيء إلى شيء أو كون الشيء لا نسبة له إلى الشيء. فأما أن يقدم عليه أو يؤخر عنه أو يتصرف في العبارة عنه نحوًا من هذه التصاريف فأمور ليس وجودها إلاّ في الذهن خاصة". (القرطاجني، ١٩٨١ ، ١٦). وقد اعتبر دال هايمز أنّ الترابط مسألة ذهنية تتعلق بمسألتي الإدراك والقدرة التواصلية اللتين تخولان للمتكلم أن يعرف، بواسطة الحسابات الذهنية التي يجريها، أنّ الخطاب مترابط أم لا انطلاقا من معارفه وقدراته، " والقوة المائزة هي التي بها يميز الإنسان ما يلائم الموضع والنظم والأسلوب والغرض ممّا لا يلائم ذلك، وما يصحّ ممّا لا يصحّ. والقوى الصانعة[٢] هي القوى التي تتولّى العمل في ضمّ بعض أجزاء الألفاظ والمعاني والتركيبات النظمية والمذاهب الأسلوبية إلى بعض التدرج من

(١) انظر حول ترجمة هذين المصطلحين كتابينا: المصطلح اللساني وتأسيس المفهوم ص١٠١ ، وما بعدها والوصائل في تحليل المحادثة: دراسة في إستراتيجيات الخطاب، ص٢٣٦.

(٢) يمكن أن نعتبر أن القوة المائزة بمثابة " مفهوم الكفاءة أو القدرة" لدى المتكلم المثالي الذي جاء به تشومسكي وما انبثق عن هذا المفهوم من بنية عميقة وبنية سطحية وهو ما عبر عنه القرطاجني "بالقوى الصانعة".

بعضها إلى بعض؛ وبالجملة التي تتولّى جميع ما تلتئم به كلّيات هذه الصناعة". (القرطاجني، ١٩٨١، ٤٣). ويتعلق الترابط بمواقف المتكلمين وتجاربهم الخاصة وإدراكهم واعتقادهم؛ ونردّ الترابط إلى الإدراك الذهني باعتباره مسألة ذهنية يعيشها المتكلم زمن إنتاج الخطاب أو تحليله. ونردّ المواقف في الحكم على مقاصد الخطاب إلى الاعتقاد وهو يجعل الخطاب في نظر المتكلم صادقًا أو كاذبًا أو حسنًا أو قبيحًا، ولذلك " فإنّ للنفوس في تقارن المتماثلات وتشافعها والمتشابهات والمتضادّات وما جرى مجراها تحريكًا وإيلاعًا بالانفعال إلى مقتضى الكلام لأنّ تناصر الحسن في المستحسنين المتماثلين والمتشابهين أمكن من النفس موقعًا من سنوح ذلك لها في شيء واحد. وكذلك حال القبح. (القرطاجني، ١٩٨١، ٤٤- ٤٥). ولذلك ارتبطت مسألة الترابط بالمعطى الذهني العرفاني المنتج للصور الذهنية المشكّلة للخطاب قبل صدوره في مستوى الإنجاز، وكذلك ارتباطها بالمعطى البرغماتي الذي يعتمد أساسًا على الأدوار السياقية المنتجة للخطاب[1].

٧,٤ السياق

يتميز الخطاب بكونه ينتج في سياقات مختلفة تتصل بمقامات التلفظ وقد اعتبر فان دايك أنه " توجد لدينا مجموعة لا متناهية من السياقات الممكنة التي يستطيع أحدنا أن تكون له فيها أوضاع مخصوصة، أعني حالة سياق واقعي. ويتحدد السياق الواقعي بفترة من الزمان والمكان فتتحقق النشاطات المشتركة لكلّ من المتكلم والمخاطب وتستوفى خواص "الآن" و "هنا" من الوجهة المنطقية والفيزيائية والمعرفية" (فان دايك، ٢٠٠٠، ٢٥٨). ولذلك يكون السياق شاملاً يحيط بعملية إنتاج الخطاب وضبط معانيه ومقاصده. فتتنوع المقاصد والأهداف الخطابية حسب السياقات المختلفة التي تمنح الخطاب تماسكه وترابطه؛ ومن أبرزها السياق اللساني الذي يعتمد فيه محلل الخطاب على الأبعاد اللسانية والسياق البرغماتي الذي يعتمد فيه المحلل على العناصر الخارجية ووضعيات التلفظ. ويعبر القرطاجني عن السياق اللساني بقوله: " فإذا أردت أن تقارن بين المعاني وتجعل بعضها بإزاء بعض وتناظر بينها فانظر مأخذًا يمكنك معه أن تكوّن المعنى الواحد وتوقعه في حيزين، فيكون له في كليهما فائدة، فتناظر بين موقع المعنى في هذا الحيز وموقعه في الحيز الآخر فيكون هذا من اقتران المناسبة، أو مأخذًا يصلح فيه اقتران المعنى بمضاده فيكون هذا مطابقة أو مقابلة، أو مأخذًا يصلح فيه اقتران الشيء بما يناسب مضاده فيكون هذا مخالفة أو مأخذًا يصلح فيه اقتران الشيء بما يشبه ويستعار اسم أحدهما للآخر فيكون هذا من تشافع الحقيقة والمجاز". (القرطاجني، ١٩٨١، ١٤- ١٥) . ويؤثر السياق في عملية التصرف في المعاني واختيار ما يناسب منها عملية الإنتاج وفق الأطر الدلالية المناسبة للموقع الاستعمالي والترتيب التركيبي والاختيار اللفظي المناسب للمعنى وطريقة استعماله في الخطاب، مما يستدعي عملية التوافق بين الصور الذهنية والمنجزات الكلامية. وقد عبّر القرطاجني عن هذه الفكرة بقوله: " وإذا قد تبين هذا

(١) انظر حول هذه المسألة كتابنا: الوصائل في تحليل المحادثة: دراسة في إستراتيجيات الخطاب، ٢٠١٢.

فيجب أن نشير إلى ما يحسن اعتماده في التصرف في هذه المعاني الذهنية، وإن تعددت في الشيء الواحد بحسب وضعه وترتيبه ، فالواجب أن يعتمد من تلك الصور المتعددة وإن استوت دلالة ومعنى يليق .... عبارة لا تسد مسد عبارة في حسن وقع وإن كان مفهومها واحدًا، لأن إحداهما أليق بالموضع وأشدهما مناسبة لما وقع في جنبتي الكلام المكتنفتين له أو لما وقع .... إحداهما. ويكون هذا التناسب يقع بين المفهومات أو بين المسموعات الدالة عليها" (القرطاجني، ١٩٨١، ١٦). لم يذكر القرطاجني دور السياق في إنتاج الخطاب معنويًا ولفظيًا ذكرًا صريحًا، ولكنه كان واعيًا بأهميته في عملية التصرف في المعاني واختيار الألفاظ المناسبة لها على مستوى الإنجاز؛ ولذلك اشترط التناسب بين المفهومات الذهنية والمسموعات الدالة عليها بواسطة اللفظ.

٥- الأبعاد البرغماتية في نظرية المعنى

أعاد موريس ١٩٣٨ نظرته لتحليل العلامة اللغوية على أساس ثلاثي يتمثل في علم التركيب وعلم الدلالة والبرغماتية التي تبحث في علاقة اللغة بمستعملها، أدى ذلك إلى نظرة جديدة في معالجة المعنى من جوانب لسانية وأخرى غير لسانية تكفل بها التحليل البرغماتي وأصبحت آليات التحليل تجمع بين العناصر اللسانية والعناصر غير اللسانية. وطرح التحليل البرغماتي علاقة المتخاطبين بالخطاب من جوانب عدة أهمها قضايا الإنتاج والفهم والتأويل والتفاعل وأفعال الكلام، سنختبر بعضها عند القرطاجني.

١,٥ علاقة المتكلم بالخطاب

تعدّ دراسته قضية المعنى في علاقتها بالإنتاج والتلقي من أهم القضايا التي ركز عليها القرطاجني. فيطرح علاقة المتكلم بالخطاب إنتاجًا وفهمًا وتأويلاً وتذوقًا. وتتبلور هذه القضايا في طبيعة الخطابات المنتجة لفظيًا، فتصنف وفقها الأقوال إلى مقبولة أو مرفوضة أو حسنة أو قبيحة حسب طبيعة متقبلها، "فتكون الأقوال في الأشياء التي علقتها بأغراض النفوس على هذا النحو متنوعة إلى فنون كثيرة نحو التشوقيات والإخوانيات وما جرى مجرى ذلك" (القرطاجني، ١٩٨١ ، ١٢). ويدرج المعاني الشعرية ضمن هذه النظرية العامة لإنتاج المعاني في علاقتها بالمتخاطبين. فيعتبر أن تكوين المعاني لا يكمن في اللغة وحدها وإنما للمتكلم دور رئيسي في ضبطها وبلورتها وفق أغراض الشعر وما تعود عليه الذوق العام من حكم عليها بالرجوع إلى الأبعاد البرغماتية والنفسية. "فمعاني الشعر، على هذا التقسيم، ترجع إلى وصف أحوال الأمور المحرّكة إلى القول أو إلى وصف أحوال المتحرّكين لها أو إلى وصف أحوال المحرّكات والمحركين معًا. وأحسن القول وأكمله ما اجتمع فيه وصف الحالين" (القرطاجني، ١٩٨١ ، ١٣). ويربط القرطاجني بين المعنى والمتصرف فيه، فيرجح أنّ للمتكلم الدور الأكبر في تصريف المعاني وفق الأهداف والمقاصد والاعتقادات، فتكون عملية التصرف مرتبطة بعملية الإنتاج، إذ هما في علاقة تفاعل تجمع بين الذهني المتصوري والإنجازي التلفظي. ويكون هذا التفاعل بين الإدراكي والتلفظي مؤسسًا على القيود المتحكمة في عملية إنتاج

الخطاب، وهي الاعتبارات التي تتحكم في تصريف المتكلم للمعاني،" والمتصرف في هذه المعاني لا يخلو من أن يكون مثبتًا لشيء ببعض تلك الاعتبارات أو مبطلاً أو مسويًا بين شيئين أو مباينًا بينهما أو مرجّحًا أو متشككًا، ولا يخلو من أن يكون معمّمًا أو خاصًا حاصرًا أو غير حاصر آخذًا للشيء بجملته أو محاشيًا بعضه. وللعبارة عن جميع ذلك أدوات وضعت للاختصار. وقد يعبّر عن جميع ذلك بغير تلك الأدوات. فهذه وأشباهها من المعاني التي تدل على مقاصد المتكلم واعتقاداته وأحكامه في التصورات والتصديقات المتعلقات بغرضه ، معان ثوان ينوطها بمعاني كلامه لتبين فيها أحكامًا وشروطًا." (القرطاجني، ١٩٨١، ١٣- ١٤). وأدرك القرطاجني أنّ المعاني صنفان: صنف يتعلق بالجانب اللساني للقول وهو ما يدرسه علم الدلالة اليوم وصنف يتعلق بالجانب الاستعمالي وهو ما تدرسه المقاربات البرغماتية اليوم . وتستنبط المعاني الأولى من القول ذاته وفق علاقاته التركيبية والسياقية والأسلوبية، وهو ما يعبّر عنه بوصف المقول وضبط أحواله وخصائصه الدلالية انطلاقًا من التحليل اللساني لمكونات الخطاب. وتستنبط المعاني الثانية من وصف أحوال القائلين وكيفية تصرفهم في هذه المعاني على المستوى الذهني المرتبط باعتقاداتهم وكذلك على المستوى الإنجازي المرتبط بكيفية الأداء وطرق التخاطب والتفاعل ، " فقد تبين بهذا أنّ المعاني صنفان: وصف أحوال الأشياء التي فيها القول، ووصف أحوال القائلين أو المقول على ألسنتهم وأنّ هذه المعاني تلتزم معاني أخر تكون متعلقة بها وملتبسة بها، وهي كيفيات مآخذ المعاني ومعطيات الأحكام والاعتقادات فيها ، ومعطيات كيفيات المخاطبة". (القرطاجني، ١٩٨١، ١٤). إنّ اهتمام القرطاجني بالمعاني وربطها بمنتجها ومستعملها يقترب ممّا تتداوله المقاربات البرغماتية اليوم رغم افتقاره إلى منهج في التحليل واضح ومكتمل الشروط.

٢,٥ نظرية أفعال الكلام

نشأت نظرية أفعال الكلام مع الفيلسوف الإنجليزي أوستين[١] معتبرًا أنّ الأقوال تمثل أفعالاً، إذ يقدّم القول معلومات تتصل بموضوع الخطاب ويفعل في الآن نفسه أشياء بالكلام. وأقام أوستين نظريته على تقسيم الكلام إلى قسمين: قسم يعتني بالملفوظ التقريري وقسم يعتني بالملفوظ الإنجازي. وتواصلت هذه النظرية مع الفيلسوف الأمريكي سارل[٢] فركز على أنّ إنجاز اللغة يعني أوّلاً تحقيق الأفعال الكلامية التي تتعلق بتقديم المعلومات أو الأوامر أو طرح الأسئلة أو تقديم الوعود إلخ. ويعني إنجاز اللغة ثانيًا أنّ هذه الأفعال تخضع بصفة عامة لبعض القواعد التي تتحكم في استعمال العناصر اللسانية (سارل، ١٩٦٩). واعتبر سارل أنّ كلّ تلفظ يمثل فعلاً خاصًّا يمكن أن يكون أمرًا أو سؤالاً أو وعدًا ... وأن كلّ فعل يتضمن درجة من القوة تمنحه قيمة الفعل. وقد كان

(١) انظر كتابه : *How to do things with words*, (1962).

(٢) انظر كتابه : *Speech Acts: An Essay in the Philosophy of Language*, (1969).

القرطاجني مدركًا لهذه الأهمية الإنجازية للغة، فعبر عن ذلك بقوله" وهنا معان أخر، وهي أنحاء المخاطبات مثل أن يكون المتكلم مخبرًا آمرًا أو ناهيًا داعيًا أو مجيبًا." (القرطاجني، ١٩٨١، ١٤). وربط هذه المهمة الإنجازية بمقاصد الفعل وقدرته على إنجاز الأشياء وتصنيفها والحكم عليها بالإقناع أو بالاعتقاد بفعل عملية التخييل التي تحرّك النفس وتفعل فيها فيؤثر ذلك على عملية الإنجاز اللغوي ومقاصد القول وتوجيه المتكلم نحو طرق إنجازية وتأثيرية معينة حسب الأهداف وشروط الفعل وقوته على حمل النفس على القيام به، "وكان القصد في التخييل والإقناع حمل النفوس على فعل شيء أو اعتقاده أو التخلي عن فعله واعتقاده وكانت النفس إنّما تتحرك لفعل شيء أو طلبه أو اعتقاده أو التخلي عن واحد واحد من الفعل والطلب والاعتقاد بأن يخيّل لها أو يقع في غالب ظنّها أنّه خير وشر بطريق من الطرق التي يقال بها في الأشياء إنّها خيرات أو شرور" (القرطاجني، ١٩٨١، ٢٠). وأدرك كذلك شروط تحقق الفعل، فقسمها إلى شروط تتعلق بمنتج الخطاب نفسه وشروط تتعلق بما يحيط بإنتاج الفعل، فضبطها بدقة تقترب مما توصلت إليه نظرية تحليل الفعل الكلامي في المقاربات الحديثة، " والتحسين والتقبيح يتعلقان بالفعل من جهة ما هو عليه في نفسه، ومن جهة ما تكون عليه الأحوال المطيفة به. والأحوال المطيفة بالفعل هي: - ١- الزمان - ٢- والمكان - ٣- وما منه الفعل - ٤- وما إليه الفعل - ٥- وما به الفعل - ٦- وما من أجله الفعل - ٧- وما عنده الفعل." (القرطاجني، ١٩٨١، ١٠٧). إنّ هذه الشروط التي وضعها القرطاجني لتحقيق الفعل الكلامي تضاهي تلك التي وضعها سارل وفندرفيكن [١] رغم أنه لم يتمكن من تصنيف الأفعال الكلامية بطريقة واضحة ولم يستطع تحليلها بالقدر الذي توصلت إليه المقاربات الحديثة ولذلك يمكن أن نعتبر أن القرطاجني كان مدركًا لهذه المسألة وواعيًا بها وكانت تنقصه الآليات التي تمكنه من الغوص فيها مثلما قام به الفلاسفة الغربيون المعاصرون في هذا الشأن.

٣,٥. إستراتيجيا التخاطب

يعود مفهوم الإستراتيجية في تحليل الخطاب إلى الاختيارات التلفظية الهادفة التي يبني عليها المتكلم خطابه قصد توجيه أفكاره إلى تحقيق مقاصده وإقناع الآخر بصحتها. فتتقيد عملية التلفظ بسياقات مقامية ومعطيات إستراتيجية تخوّل للمتكلم إنتاج خطاب يتلاءم وهذه المعطيات، فتكون أنشطته اللغوية الذهنية والإنجازية مبنية على أساس الإستراتيجيات الموجهة للخطاب إلى وجهة معينة يرسمها المتكلم مسبقًا وفق خطة تقوم على المنطق والحجاج

(١) انظر حول هذه المسألة كتابهما:

SEARLE, John & VANDERVEKEN, Daniel; *Foundations of Illocutionary Logic*, (1985).

والإقناع وقول ما هو معتقد في صحته من قبل المشارك في عملية التلفظ[1]. ويشير القرطاجني إلى هذه الإسترتيجيات بقوله: " لمّا كان كلّ كلام يحتمل الصدق والكذب إمّا أن يرد على جهة الإخبار والاقتصاص وإمّا أن يرد على جهة الاحتجاج والاستدلال، وكان اعتماد الصناعة الخطابية في أقاويلها على تقوية الظن لا على إيقاع اليقين اللهم إلاّ أن يعدل الخطيب بأقاويله عن الإقناع إلى التصديق، فإنّ للخطيب أن يلمّ بذلك في الحال بين الأحوال من كلامه". (القرطاجني، ١٩٨١، ٦٢). وتقوم الإستراتيجيات الخطابية على اختيار قول دون غيره. وتبنى هذه العملية على وجود ثلاث إستراتيجيات لا بد من تحقيقها في الخطاب حتى يكون هادفًا ومقنعًا وهي إستراتيجية المشروعية وإستراتيجية المصداقية وإستراتيجية المقبولية. وتهدف الإستراتيجية الأولى إلى بسط الخطاب وجعله مشروعًا وصاحب سلطة. وتهدف الإستراتيجية الثانية إلى وضع الخطاب في موضع المصداقية وجعله يتصف بالحقيقة، فيضع المتكلم نفسه موضع التقييم مما يكسبه هذه الصفة فيركز في خطابه على عبارات تعزز هذا الدور مثل عبارات من قبيل "حقًا"، "طبعًا"، "بالتأكيد"، فعلاً،... وتهدف الإستراتيجية الثالثة إلى جعل السامع مشدودًا إلى الخطاب باستعمال ما يفيد استدراجه وإيهامه بصحة ما يقال، ويركز المتكلم هنا على البعد النفسي والعاطفي للسامع ومحاولة السيطرة على مشاعره وأحاسيسه وعاطفته وتوجيه ذلك إلى التركيز على مقبولية الخطاب والاعتقاد في صحته ، فيستعمل المتكلم العجيب والمتخيل محاولاً ربطه بالواقع والحقيقية بغية الإقناع والسيطرة على ذهن السامع بقلب الكذب إلى الصدق. وقد عبّر القرطاجني عن هذه القضية بقوله:" وإنما يصير القول الكاذب مقنعًا وموهمًا أنّه حقّ بتمويهات واستدراجات ترجع إلى القول أو المقول له. وتلك التمويهات والاستدراجات قد توجد في كثير من الناس بالطبع والحنكة الحاصلة باعتياد المخاطبات التي يحتاج فيها إلى تقوية الظنون في شيء ما أنّه على غير ما هو عليه بكثرة سماع المخاطبات في ذلك والتدرّب في احتذائها." (القرطاجني، ١٩٨١، ٦٣). ومن الإستراتيجيات الخطابية التي أكدّ عليها القرطاجني هي كيفية استدراج السامع إلى دائرة الخطاب واستمالته إلى القبول بما يقدم له من أفكار .وتقوم هذه العملية على الجانب الحجاجي والإقناعي في الخطاب وعلى قدرة المتكلم على إنتاج هذه الأساليب القولية الموجهة لعملية الفهم والتأويل. وهي آليات حجاجية أدركها القرطاجني وعرف قيمتها الإستراتيجية في إنتاج الخطاب وتسويغه بطريقة هادفة ومقصودة للسيطرة على مجرى التخاطب والتحكم في الخصم، " والاستدراجات تكون بتهيؤ المتكلم بهيئة من يقبل قوله، أو باستمالته المخاطب واستلطافه له بتزكيّته وتقريظه، أو بأطبائه لنفسه وإحراجه على خصمه حتى يصير بذلك كلامه مقبولاً عند الحكم، وكلام خصمه غير مقبول. (القرطاجني، ١٩٨١، ٦٤). إنّ وصف القرطاجني لبعض آليات إستراتيجيات الخطاب جعلته مميزًا عن غيره ممن في عصره أو ممن

(١) انظر حول هذه المسألة كتابنا: الوصائل في تحليل المحادثة: دراسة في إستراتيجيات الخطاب، ٢٠١٢.

سبقه، ولكن رغم هذا التميز فإنه لم يكن واضحًا في وضع نموذج متكامل في إستراتيجيات الخطاب كما عرفتها اللسانيات الحديثة.

٤,٥ اعتماد التسويم والتحجيل

ركزت الدراسات الحديثة على بنية افتتاح الخطاب وانغلاقه، فهي تؤدي وظائف متعددة في فهمه وتأويله وتوجيهه نحو مقاصده وجوانبه الدلالية والبرغماتية والتفاعلية[1]. وقد عبّر القرطاجني عن هذ البنية بمصطلح التسويم وربطه بالوظيفة الجمالية التي ستؤثر في بقية البناء في الخطاب (القصيدة)، " وكان لفواتح الفصول بذلك بهاء وشهرة وازديان حتى كأنّها بذلك ذوات غرر رأيت أن أسمي ذلك بالتسويم وهو أن يعلّم على الشيء له سيمة يتميز بها. وقد كثر استعمال ذلك في الوجوه والغرر." (القرطاجني، ١٩٨١، ٢٠٧). واعتبر الفواتح ذات أهمية كبرى لها تأثير على السامع وتوجيه حكمه واستدراجه إلى التفاعل والإقناع به، ولذلك أعدّها ركنًا عظيمًا في صناعة الخطاب لا يرقى إليها إلاّ من كان قوي المادة الممتلك لناصية اللغة والفائق الطبع،" وهذا الفنّ من الصناعة ركن عظيم من أركان الصناعة النظمية لا يسمو إليه إلاّ من قويت مادّته وفاق طبعه" (القرطاجني، ١٩٨١، ٣٠٠). ويؤدّي افتتاح الخطاب وفق الصناعة النظمية السامية إلى تأطير مجرى الخطاب وتوجيه إنجاز الكلام ويساعد على إنجاح التفاعل والتواصل ويؤسّس لمبدأ التعاون الذي أقرّه غرايس.

وكما أنّ للافتتاح وظائف فلبنية انغلاق الخطاب وظائف لا تقل عنها شأنًا، فهي تضطلع بعملية التقييم لما سبق من مواضيع وأفكار تداولها الخطاب، والحكم عليها سلبًا أو إيجابًا أو تصديقًا أو تكذيبًا ومن ثمة اعتبار الخطاب ناجحًا أو فاشلاً. كما تؤدّي نهاية الخطاب وظيفة تفاعلية تعبّر عن طبيعة العلاقة بين المتكلمين، فإذا استخدمت عبارات معينة دالة على طبيعة هذا التفاعل في نهاية الخطاب كان لها الأثر الواضح على حسن الانتهاء وتقبّل النفوس لها،" وإذا ذيلت أواخر الفصول بالأبيات الحكمية والاستدلالية واتضحت شيات المعاني التي بهذه الصفة على أعقابها، فكان لها ذلك بمنزلة التحجيل زادت الفصول بذلك الفصول بذلك بهاء وحسنًا ووقعت من النفوس أحسن موقع" (القرطاجني، ١٩٨١، ٣٠٠). وتمثل نهاية الخطاب مجالاً خصبًا للتذكير بما ترامت أطرافه فيما سبق من الخطاب من معان كانت مفصلة ثم تم إجمالها والتركيز عليها في النهاية، ولهذه الأسباب تؤدّي نهاية الخطاب وظيفة برغماتية تبرهن عن مدى عملية التفاعل ودرجة قوتها مما يكشف عن مدى تقبّل الخطاب وإفادته وما خلّفه من أمور نفسية بين المتفاعلين ولذلك ارتبطت قيمة النهاية بما سبقها من معان،" ولا يخلو المعنى الذي يقصد تحلية الفصل به وتحجيله من أن يكون مترامًيا إلى ما ترامت إليه جملة معاني الفصل إن كان مغزاها واحدًا أو يكون مترامیا إلى ما

(١) انظر حول هذه المسألة كتابنا: الوصائل في تحليل المحادثة: دراسة في إستراتيجيات الخطاب، ٢٠١٢.

ترامي إليه بعضها، فيورد على جهة الاستدلال على ما قبله أو على جهة التمثيل. (القرطاجني ١٩٨١، ٣٠٠). ولذلك مثلت عملية افتتاح الخطاب وانتهائه إستراتيجية من إستراتيجيات التخاطب، فهي الأكثر رسوخًا في الذاكرة، وهي البانية لعملية التفاعل ومن ثمة التواصل ونجاح الخطاب أو فشله.

٥,٥ مبدأ المناسبة

أسست قواعد غرايس المحادثاتية لنظرية المناسبة التي بلور أبعادها النظرية الفيلسوف الفرنسي دان سباربر والبريطاني ديارد ولسن [١] فركزا نظريتهما على مبدأ المناسبة القائم على الاستلزام الحواري والاستدلال. واعتبرت هذه النظرية تحوّلاً مهمّا في اللسانيات وفي مناويل التواصل بصفة خاصة، ومن شروط هذه النظرية أن يكون الخطاب خاضعًا للعوامل السياقية التي أنتج فيها، إذ كلّما كانت درجة الخضوع كبيرة كان الملفوظ مناسبًا، وكلّما تطلب تأويل الملفوظ مجهودًا كبيرًا من قبل المتلفظ كان أقلّ مناسبة من غيره. وقد اعتبر سباربر وولسن هذا المبدأ أمرًا رئيسيًا بالنسبة إلى أيّ خطاب واضح، فمن شروطه الأساسية أن يكون الخطاب خاضعًا للعوامل السياقية ويكون ملفوظه واضحا، ويتعلق مبدأ الوضوح بما هو ظاهر في العبارة والتركيب حتّى لا يحتاج المؤوّل إلى مجهود إضافي لاستنباط المعاني الخفية. وقد عبّر القرطاجني عن هذا الوضوح بقوله:" ومن المتناسبات ما يكون تناسبه بتجاوره الشيئين واصطحابهما واتفاق موقعيهما من النفس ومنه ما تكون المناسبة باشتراك الشيئين في كيفية، ولا يشترط فيه التجاور ولا الاتفاق في الموقع من هوى النفس".(القرطاجني، ١٩٨١، ١٤). وعبّر القرطاجني عن مبدأ المناسبة أيضًا بتناسب المعاني إذا اختلت الألفاظ ، وهو الأساس في فهم الخطاب وضبط دلالته فربطه بالملاءمة في الوضع واختيار الألفاظ لكلّ موضع من مواضع التركيب من الناحية الكمية والكيفية (المقادير والصور) وهما مبدآن ذكرهما غرايس حديثًا وأسس بهما لمبدأ المناسبة في عملية الاتصال والتواصل وربطه بالأبعاد المعرفية." فأمّا ما تعددت فيه الأفعال ومرفوعاتها ومنصوباتها وتباينت، فيحتاج إلى أن يناسب بين المعاني الواقعة بهذه الصفة في وضع عباراتها وتفصيلها إلى مقادير وصور تكون متلائمة الوضع متناسبة التفصيل ليقع في الكلام بذلك خفة التناسب" (القرطاجني، ١٩٨١، ٣٤). ويشترط القرطاجني لنجاح مبدأ المناسبة توفّر القدرة الذهنية والفكرية والذوقية للمتكلّم التي تجعله يدرك ما يناسب وما لا يناسب من الخطاب، مستندًا في ذلك إلى جملة من القوانين المتمثلة في التجربة الاجتماعية والنفسية والمشترك بين المتكلمين والمتشابه، وهي عناصر قامت عليها نظرية المناسبة التي تبحث في مظاهر وجود الحقيقة وشروط توفرها في الخطاب، إذ يجري المتكلم عدة فرضيات فكرية وذهنية تساعده على فهم مجرى الخطاب ومعالجة المعلومات المتجدّدة في ذهنه. وقد ربط القرطاجني ذلك بالذوق والفكر القادر على التمييز، إذ "لا بدّ مع ذلك من الذوق الصحيح والفكر المائز بين ما يناسب و ما لا يناسب وما يصحّ وما لا يصحّ بالاستناد إلى تلك

(١) انظر كتابهما: *La pertinence: communication et cognition*, (1989).

القوانين على كلّ جهة من جهات الاعتبار في ضروب التناسب وغير ذلك مما يقصد تحسين الكلام به" (القرطاجني، ١٩٨١، ٣٥). وربط القرطاجني بين التخييل والمناسبة، وهي مسائل تعالجها اليوم النظرية العرفانية التي ربطت بين القدرات الذهنية والنفسية للمتكلم ودورها في معالجة المعلومات ووضعها في سياقها المناسب معنًى ولفظًا، إذ الخطاب شكل منطقي ومكونات سياقية مختلفة يستند إليها المتكلم في عملية الفهم والتأويل مما يجعله قادرًا على الجمع بين الصور الذهنية المكونة لأفكار الخطاب والصور التلفظية اللسانية المكونة لصناعة الخطاب، إذ بينهما تفاعل وتداخل يخوّل للمتكلم إصدار أحكام قيمية حول الخطاب ذاته على نحو قدّمه القرطاجني في مسألة التخييل، " وأحسن مواقع التخييل: أن يناط بالمعاني المناسبة للغرض الذي فيه القول كتخييل الأمور السارة في التهاني، والأمور المفجعة في المراثي. فإنّ مناسبة المعنى للحال التي فيها القول وشدّة التباسه بها يعاون التخييل على ما يراد من تأثر النفس لمقتضاه." (القرطاجني، ١٩٨١، ٩٠). أسس القرطاجني مبدأ المناسبة على تناسب الذهني التخييلي مع ما هو منجز من الكلام، فربط بذلك بين الفضاءات الذهنية والفضاءات الإنجازية. وقد تعرض فوكونييه[١] (١٩٨٤) لهذه المسألة باحثًا في كيفية انتقال البنى الذهنية للملفوظ إلى البنى الإنجازية وكيف يخطط المتكلم لذلك.

٦. القصدية

يعود مفهوم القصدية إلى نشأته في القرون الوسطى ومن أبرز المنشئين له[٢] في التراث العربي ابن سينا والفارابي ولا نشك في أنّ القرطاجني قد تأثّر بهما وخاصة ابن سينا الذي ترجم كتاب فن الشعر والمنطق لأرسطو . وقد كانت القصدية تعني عندهم "المعقول" (noema) ولذلك، فالقصدية تأسّست في معناها الأوّل على كيفية ارتباط العقل بمقاصد الأشياء في الطبيعة. وقد اشتق منها حديثًا مصطلح "القصد" (intention)، وقد ميّز الفلاسفة المهتمون بها نوعين من المقاصد: المقاصد الأولى، والمقاصد الثانية، متّبعين في ذلك الفارابي. وتهتم المقاصد الأولى بالمفاهيم التي تعنى بالأشياء خارج العقل، وتهتم المقاصد الثانية بالمفاهيم التي تتعلق بالمقاصد الأخرى.(صلاح اسماعيل ،٢٠٠٧، ص ٧٣). وبقي مصطلح القصدية غائبًا عن الدراسات الفلسفية إلى أن أعاده إليها الفيلسوف النمساوي فرانز برنتانو في أواخر القرن التاسع عشر، ثم أصبحت سمة بارزة في القرن العشرين مع هوسرل في الفينومينولوجيا ومع سارل في فلسفة اللغة. ويبدو أنّ القرطاجني قد أدرك معنى القصدية على الأقل في معناها الأوّل دون أن يصرّح بذلك، ومن خلالها حدد كيفية التصرف في المعاني، "وإذ قد عرفنا كيفية التصرف في المعاني التي لها وجود والتي

---

(١) انظر حول هذه المسألة كتابه:

FAUCONNIER Gilles ; *Espaces mentaux: aspects de la communication du sens dans les langues naturelles*, (1984).

(٢) انظر حول هذه المسألة مقالنا: القصدية في الخطاب السجالي، ضمن كتاب التداوليات وتحليل الخطاب، ٢٠١٤ ، ص ص ٢٩٣- ٣١٦.

جعلت بالفرض بمنزلة ما له وجود خارج الذهن فيجب أيضًا أن يشار إلى المعاني التي ليس لها وجود خارج الذهن أصلاً وإنما هي أمور ذهنية محصولها صور تقع في الكلام بتنوع طرق التأليف في المعاني والألفاظ الدالة عليها والتقاذف بها إلى جهات من الترتيب والإسناد، وذلك مثل أن تنسب الشيء إلى الشيء على جهة وصفة به أو الإخبار به عنه أو تقديمه عليه في الصورة المصطلح على تسميتها فعلاً أو نحو ذلك".(القرطاجني، ١٩٨١، ١٥-١٦). نستشف من خلال هذا الرأي أنّ تقسيم القرطاجني التصرف في المعاني إلى قسمين: قسم موجود في الذهن وقسم موجود خارج الذهن يتقاطع مع مفهوم القصدية في صورتها الأولى أي بنوعيها: القصدية الأصلية التي تهتم بإدراك الأشياء والوعي بها داخل الذهن والقصدية المستمدة التي تعنى بوجود الأشياء خارج الذهن وكيفية توجيه العقل نحوها. وقد عالج القرطاجني صناعة البلاغة وفق القصدية، ونصح بمعالجتها بهذه الطريقة " فيكون النظر في صناعة البلاغة من جهة ما يكون عليه اللفظ الدال على الصور الذهنية في نفسه ومن جهة ما يكون عليه بالنسبة إلى موقعه من النفوس من جهة هيأته ودلالته ومن جهة ما تكون عليه تلك الصور الذهنية في أنفسها ومن جهة مواقعها من النفوس من جهة هيآتها ودلالاتها على ما خرج من الذهن ومن جهة ما تكون عليه في أنفسها الأشياء التي تلك المعاني الذهنية صور لها وأمثلة دالة عليها ومن جهة مواقع تلك الأشياء من النفوس" (القرطاجني، ١٩٨١، ١٧). ميز القرطاجني في القول السابق بين المعاني المنتجة ذهنيًا حسب الصور التي يوجهها لها العقل، فيكون واعيًا بها وعيًا متعاليًا كما هو مدرك في الذهن قبل أن تتحول إلى معيش قصدي. وقد عبر عن ذلك بقوله" ومن جهة ما تكون عليه الصور الذهنية في أنفسها". وتضطلع بهذا الدور القصدية الأصلية التي تبحث في مكونات الوعي المعنى الصرف للمتصور دون الاهتمام بالمضمون التمثيلي أو اللجوء إلى استحضار أي نوع من العلاقات الرابطة بين الوعي القصدي والموضوع القصدي. وعبر عن "ما يكون عليه اللفظ الدال على الصور الذهنية في نفسه" أي عن المعاني التي يتجه إليها العقل ليعيشها قصديًا ويتوجه الوعي نحو الموضوع الواقعي[1]. وتضطلع بهذا الدور القصدية المستمدة أو الدخيلة التي تبحث في مسألة المعنى عن طريق اتجاه الوعي العقلي إلى الخارج. " فالمتصورات التي في فطرة النفوس ومعتقداتها العادية أن تجد لها فرحًا أو ترحًا أو شجوًا هي التي ينبغي أن نسميها المتصورات الأصلية. وما لم يوجد ذلك لها في النفوس ولا معتقداتها العادية فهي المتصورات الدخيلة" (القرطاجني، ١٩٨١، ٢٢). وإذا ما نظرنا إلى ماهية القصدية التي استعملها القرطاجني دون أن يصرح بذلك فإننا يمكن أن نقول إنّه لم يتجاوز مفهومها الأوّل كما ضبطه برنتانو الذي ربطها بعلم النفس، ولذلك تبقى محاولة القرطاجني في فهمه الخطاب بصفة عامة والبلاغة بصفة خاصة محاولة جادّة رغم توقفها عند المستوى الأوّل للقصدية.

(١) انظر حول هذه المسألة كتابنا: المصطلح اللساني وتأسيس المفهوم، ٢٠١٣.

١,٦ التمثيل الذهني

يركّز التمثيل الذهني على العلاقة الرابطة بين إدراك المتصورات واستحضارها لحظة إنتاج الخطاب وتضطلع بهذا الدور القصديتان بصورة متوازية، فيتكوّن المعنى بصورة حدسية ثم يتشكّل متصورًا ذهنيًا فيتمثل في صورة ذهنية عن طريق الوعي القصدي. ويركّز مفهوم التمثيل على كيفية تمثل العقل للأشياء، فيعتني بتمثيل صورة لصورة أخرى مشابهة لها بطريقة من الطرق الذهنية أو المادية، ويبحث التمثيل الذهني في طبيعة العلاقة الرابطة بين الصور الذهنية والصور الخارجية، " إنّ المعاني هي الصور الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان. فكلّ شيء له وجود خارج الذهن فإنّه إذا أدرك حصلت له صورة في الذهن تطابق لما أدرك منه، فإذا عبّر عن تلك الصورة الذهنية الحاصلة عن الإدراك أقام اللفظ المعبّر به هيئة الصورة الذهنية في أفهام السامعين وأذهانهم" (القرطاجني، ١٩٨١، ١٨). فيرتبط العقل بالحالات العقلية التي يعيشها قصديًا عن طريق إدراك هذه الحالات التي يصنعها الإنسان حول هذه الأشياء المدركة وقد عبّر القرطاجني عن ذلك بكيفية الربط بين الصور الذهنية والصور الخارجة عنه، وهي حسب رأيه علاقة تطابق لم يدرك وجودهما في الذهن أو في الواقع وربط حصول ذلك بإدراك السامعين ومدى فهمهم لهذه الصور لأنّه يحلل الظاهرة الشعرية.

الخاتمة

إن دراستنا كتاب "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" في ضوء المقاربات الحديثة جعلتنا ندرك أهمية هذا الكتاب في الدراسات التراثية العربية، فهو كتاب يتسع المواضيع اللسانية كلّها، وهذا ما يجعل الحكم عليه بأنّه كتاب في النقد حكما قاصرًا لم يدرك ما فيه من جوانب لسانية أخرى تعرضنا لها في هذا البحث. فكلّما تمعنا في الشواهد التي اعتمدناها في هذا البحث وأدركنا كنهها تبيّن لنا عمق هذا الكتاب واتساع نظر صاحبه ووعيه بمسائل باتت اليوم معروفة عند من يهتم باللسانيات الحديثة، إذ وجدنا لها علاقات تبرّر وجودها رغم أنها لم تكن أحيانًا بالدرجة نفسها من الوعي بالظاهرة المدروسة وكيفية تحليلها بوضوح كاف، أو بوضع قوانين لها بالطريقة نفسها. فكان القرطاجني رغم حرصه على المنهج لم يتمكن بصورة كافية وشافية من ضبط القوانين المحركة لهذه المقاربات الجديدة والبانية لمفهوم تحليل الخطاب. ولكن يمكننا القول أنّ القرطاجني يستحق مكانة رفيعة فنعدّ كتابه كتابًا في نظرية المعنى، وهو إرهاص أولي للبحث في نظرية تحليل الخطاب من أصول عربية استندت على المنطق الأرسطي وتأثّرت بالفلسفة العربية.

قائمة المصادر والمراجع

- إسماعيل، صلاح. نظرية جون سيرل في القصدية : دراسة في فلسفة العقل. حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، مجلد ٢٧ عدد٢٦٢. الكويت: منشورات جامعة الكويت، ط١، ٢٠٠٧.
- براون، جليان وجورج، يول. تحليل الخطاب. ترجمة لطفي الزليطني ومنير التريكي، الرياض: النشر العلمي والمطابع جامعة الملك سعود، ط١٩٩٣، ١/ ١٩٩٤.
- الحلواني عامر بن مختار. التحليل السيميائي والمشروع التأويلي. صفاقس: كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، وحدة البحث في المناهج التأويلية، ط١، ٢٠١٠.
- الحلواني عامر بن مختار. في القراءة السيميائية. صفاقس :كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، وحدة البحث في المناهج التأويلية، ط١، ٢٠٠٥.
- الروسي محمد الحافظ. ظاهرة الشعر عند حازم القرطاجني. الرباط: منشورات دار الأمان ، ط١، ٢٠٠٨.
- فان دايك تون. النّص والسياق: استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي. ترجمة عبد القادر قنيني، الدار البيضاء / بيروت: إفريقيا الشرق، ط١، ٢٠٠٢ .
- فان دايك تون. علم النّص : مدخل متداخل الاختصاصات. ترجمة سعيد حسن بحيري، القاهرة: دار القاهرة للكتاب، ط١، ٢٠٠١.
- فان دايك تون." النّص بنى ووظائف: مدخل أوّلي إلى علم النّص". ضمن كتاب العلاماتية وعلم النّص، ترجمة منذر عياشي، الدار البيضاء / بيروت: المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٤.
- القرطاجني حازم أبو الحسن. منهاج البلغاء وسراج الأدباء. تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط٢ ، ١٩٨١.
- الميساوي خليفة بن الهادي. "مدخل إلى نظريات تحليل الخطاب". ضمن: المنوال، تونس: دار المعلمين العليا/ سيراس للنشر، ط١، ٢٠٠٩.
- الميساوي خليفة بن الهادي. المصطلح اللساني وتأسيس المفهوم. بيروت: منشورات دار الضفاف، ط١، ٢٠١٣.
- الميساوي خليفة بن الهادي. الوصائل في تحليل المحادثة: دراسة في إستراتيجيات الخطاب. إربد: عالم الكتب الحديث، ط١، ٢٠١٢.
- الميساوي خليفة بن الهادي. "القصدية في الخطاب السجالي". ضمن كتاب التداوليات وتحليل الخطاب، عمان : دار كنوز المعرفة، ط١، ٢٠١٤.

المراجع الأجنبية

- ADAM, Jean– Michel; 1999, Linguistique textuelle : des genres de discours aux textes. Paris: Editions Nathan/HER.
- AUSTIN, John. Langshaw; 1962, How to Do Things With Words. Oxford, Oxford University Press.
- BENVENISTE, Emile; 1966, Problèmes de linguistique générale, Tome I, Paris: Gallimard.
- BENVENISTE, Emile; 1974, Problèmes de linguistique générale, Tome II, Paris, Gallimard.
- DE SAUSSURE, Ferdinand ; 1916/1985, Cours de linguistique générale, Genève, Payot.
- DOMENJOZ, Jean-Claude; 1998, «L'approche sémiologique», Contribution présentée dans le cadre de la session I du dispositif de formation 1998-1999;in Catégories fondamentales du langage visuel, pp1-27.
- DUCROT, Oswald. et al;1980, Les mots du discours. (1Ed). Paris : Editions de Minuit.
- DUCROT, Oswald;1980, « Analyses pragmatiques » Communications, n°32, pp. 11-60.
- DUCROT, Oswald;1980, Dire et ne pas dire : principes de sémantique linguistique, (2Ed). Paris : Hermann.
- DUCROT, Oswald;1980, Les échelles argumentatives, (1Ed). Paris : Editions de Minuit.
- DUCROT, Oswald;1984, Le dire et le dit. (1Ed). Paris : Editions de Minuit.
- DUCROT, Oswald;1989, Logique, structure, énonciation, (1Ed). Paris : Éditions de Minuit.
- FAUCONNIER, Gilles ; 1984, Espaces mentaux: aspects de la communication du sens dans les langues naturelles, Paris: Editions de Minuit.
- GRICE, Herbert, Paul;1979, «Logique et conversation», in Communication, no 30, pp57-72.
- HYMES, Dell; 1974, Foundations in Sociolinguistics: An Ethnographic Approach. (1Ed). Philadelphia: The University of Pennsylvania Press.
- JAKOBSON, Roman; 1963, Essais de linguistique générale, Paris, Minuit.

- JAYEZ, Jacques; 1998, L'inférence en langage naturelle, le problème des connecteurs représentation et calcul, Paris: Hermès.
- MOESCHLER, Jacques; 1996, « Les connecteurs pragmatiques et la cohérence conversationnelle », in Le discours : cohérence et connexion. Actes du colloque international Copenhague le 7 Avril 1995, in Etudes Romanes 35, pp. 15–32.
- MORRIS, Charles;1938, « Fondements de la théorie des signes», in Langages, N0 35, 1974/ (1938), pp 15–26.
- PATRY, Rail ; 1993, « L'analyse de niveau discursive en linguistique : cohérence et cohésion », in Tendances actuelles en linguistique générale, Paris, Delachaux et Niestlé S.A,Neuchatel ,pp.109–143.
- PEIRCE, Charles Sanders; 1978, Ecrits sur le signe, Paris: Seuil.
- SEARLE, John. R; 1969, Speech Acts: An Essay in the Philosophy of Language. Cambridge: Cambridge University Press.
- SEARLE, John & VANDERVEKEN, Daniel; 1985, Foundations of Illocutionary Logic , Cambridge: Cambridge University Press.
- SPERBER, Dan & WILSON, Deirdre;1989, La pertinence: communication et cognition. (1Ed). Traduit de l'anglais par A. Gerschenfeld et D. Sperber. Paris: Éditions de Minuit.
- VANDERVEKEN, Daniel; 1992, « La théorie des actes de discours et l'analyse de la conversation », in Cahiers de linguistique française, 1992, n°13, pp. 9–59.

Abstract:

In this research we considered some issues that were the subject of modern linguistic studies especially in discourse analysis theories. Cohesion and coherence, anaphor, the relation of the speaker to the discourse, production of meaning and context, discourse strategies, intentionality and mental representation are the most prominent issues so that we discussed their modern occidental theories and presented them to the Arabic reader briefly. Then, we applied them to " Menhāj Albulaγa wa Sirāj Al□udaba□ " and we found that a great part of it goes with these modern theories despite the remoteness in time and the closeness in geography. So, we dealt in these issues using the comparative method and tried to prove and justify their presence which is sometimes unobvious in the book. For this reason, we simplified these theories to the reader in the same way as they were in their occidental origins. Then we applied them to Abu-l-Hasan Al-Qartajanni's book ..